

# أثر الحرب الكبرى

في بريطانيا<sup>(١)</sup>

للأستاذ رمزى ميور

أستاذ التاريخ الحديث في جامعة منستر سابقاً

ترجمة الأستاذ محمد بدران

ناظر مدرسة بمقادون الابتدائية

ليس في العالم كله مجتمع أو طائفة من المجتمعات أثرت الحرب في مصارها كما أثرت في بريطانيا وما يتجمع حولها ويرتبط بها من الشعوب المؤتلفة المنتشرة في أنحاء العالم

ولقد كانت الحرب الكبرى التي دارت رحاها بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ هي آخر عراك من أربعة يحدد كل منها فترة من فترات التاريخ اضطلمت بريطانيا فيها بدور حيوى هام هو انقاذ العالم من سيطرة دولة واحدة ، أو نزعة للحضارة واحدة ؛ وكان لكل عراك منها أثر بليغ في مركزها هي . فأما العراك الأول فهو حرب اسبانيا أيام الملكة اليبسات ، وفيه فهزت ذلك الخصم العنيد ، وصانت حرية البحار ، وخرجت منه وهي أكبر الدول البحرية ، والقادرة على أن تحيا حياتها الخاصة من غير خطر يهددها ، وأن تنشر تجارتها وتبسط سلطانها فيما وراء البحار

وأما في العراك الثاني فعلى التي قادت الحلف الذى أذل كبرياء لويس الرابع عشر ، ووثقت روابطه وخرجت منه وهي أعظم الأمم التجارية وأولى الأمم ذات الحكومات الديمقراطية ، وفتح أمامها باب سيادة العالم الجديد فنالت تلك السيادة قبل أن ينتضى على الحرب نصف قرن . وفي العراك الثالث كانت هي العدو الوحيد الذى لم تقو الثورة الفرنسية ونابليون على هزيمته ، وذلك بفضل قوتها البحرية ، وخرجت

(١) من كتاب النتائج السياسية للحرب الكبرى صدر في سنة ١٩٣٠

من هذا العراك وهي من غير شك أقوى دول العالم وسيدة البحار بلا منازع ، ومالكة الثروة التي أخرجتها وسائل الانتاج الآلية الحديثة ، والسيطرة على امبراطورية عظيمة تضم بين أطرافها القارات وأشياء القارات . وكانت كل حرب من هذه الحروب العالمية سبباً في ارتفاع شأن الشعوب البريطانية وزيادة قوتها . فإذا كان أثر الحرب الأخيرة فيها ؟

كانت بريطانيا العظمى في خلال القرن التاسع عشر أقوى دول العالم أجمع ، لا ينازعها في ذلك المركز منازع . وكان مرجع قوتها إلى عدة عوامل : أولها عزلتها البحرية التي أمنت بها أخطار الغزو الأجنبي أمناً لم يتمتع به غيرها من الدول الأوربية ، ومكنها من أن تُسمّى نظم الحكم الذاتي الخاصة بها في أمن واطمئنان ، وأن تفرس في نفوس أبنائها حب الهدوء واطاعة القوانين . وثاني هذه العوامل هو تفوقها البحري الذى لم يكن يسمو اليه غيرها من الدول ؛ وبفضل هذا التفوق أمنت بريطانيا على نفسها أكثر مما تأمن على نفسها أمة أخرى في العالم ؛ وعظم نفوذها في شواطئ البحار ، وأنجحت هي المثلة للحضارة الأوربية لدى معظم الشعوب غير الأوربية . وثالث هذه العوامل هو امبراطوريتها الواسعة الأرجاء التي تمتلكها بوسائل سهلة ، والتي أخلصت لها شعوبها المحكومة ، والتي أخذتها بريطانيا سوقاً لمنتجاتها ، ومستودعاً للمواد الغفل لم تتل مثله غيرها من الأمم . ورابعها تفوقها في وسائل الانتاج الصناعى الحديثة ووجود مناجم غنية بالفحم سهل الاستخراج كان الى عهد قريب هو القوة الصناعية الوحيدة في العالم . والعامل الخامس هو ما انطوت عليه صدور أبنائها من حب المناصرة وما طبعوا عليه من قوة الابتكار الفردى . وسادسها هو قوتها المالية التي نشأت من انتشار طادة الادخار والاستثمار بين أبنائها ، وبما أنشأته من نظام مصرفى عجيب ؛ وقد أصبحت بفضل هذه القوة مركز العالم المال والدولة الدائنة العظيمة التي مدت العالم بمعظم ما احتاجه من رهوس الأموال لاستثمار البلاد الجديدة ، وبفضل وسائلها ومبتكراتها المالية يتبادل العالم تجارته الدولية . والعامل السابع في عظمت بريطانيا أنها هي وحدها السوق العظيمة الحرة والمتنوعة المركزى العالم الذى تأتى اليه جميع غلات العالم كله

والشقة كما دلت الحرب . فان أهلها كادوا يموتون جوعاً بسبب النواصات القليلة المدد التي استخدمتها ألمانيا في الحرب . وإذا ما هاجمها في المستقبل أسطول من النواصات كالذي تمتلكه فرنسا مثلاً كان هذا الهجوم أكثر مفاجأة لها وأشد خطراً عليها ، لأن الجزيرة التي كانت من قبل مقلداً ميمياً لأهلها أصبحت الآن شركاً منصوباً لهم . وليس في استطاعة بريطانيا أن تعتمد في سلامتها على مواردها الخاصة كما كانت تعتمد عليها في الأيام الماضية . فاذا أرادت أن تأمن على نفسها فان عليها أن تُعَوِّل على ما يقوم به العالم المتمدين من عمل إجماعي لجعل الحرب مستحيلة الوقوع

ولقد انقضى الآن عهد سيادة بريطانيا البحرية اقتضاء لاسرِّد له بعد أن دام ثلاثة قرون واضطرت بريطانيا في معاهدة واشنطن (سنة ١٩٢٢) أن تعترف « بمساواة » الولايات المتحدة لها وهي تعلم علم اليقين أنه إذا قام التنافس في التسليح بينها وبين الولايات المتحدة تغلبت عليها الأخيرة بمواردها التي لا ينضب مئيتها . وليس هذا كل ما في الأمر فان الحرب أظهرت أن الأحوال الحاضرة تجعل الاحتفاظ « بسيادة البحار » على الوجه الأكل من أصعب الأمور . فلقد كان عدد السفن الألمانية المنيرة التي انطلقت في بداية الحرب أو استطاعت أن تغتلب من الحصر في أثنائها صغيراً لا يذكر ، ولو لم يكن ساحل ألمانيا غاية في القصر سهل الرقابة لما كان عدد هذه المنيرات قليلاً إلى هذا الحد ، ولكنها على قتلها يقتنصها إلا مائة وأربعون طراداً . ذكر ذلك اللورد جليكو في المؤتمر البحري المُعْجَل الذي عقد في عام ١٩٢٧ لكي يتدبر به للاحتفاظ لبريطانيا بسبعين طراداً فقط . أما إذا أرادت أن تضمن لنفسها سيادة البحار في كل الأحوال فلا يكفيها سبعون طراداً بل لابد لها من سبعمائة ، فليس في استطاعتها إذن أن تعتمد على مواردها الخاصة لتضمن سلامة البحار ، تلك السلامة التي تقف عليها حياتها ، بل عليها أن تعتمد على تعاون هيئة عالية منظمة . وقد يميز على بريطانيا بطبيعة الحال أن تقر بهذه النتيجة ، لكنها رغم ذلك نتيجة محتومة لا مناص منها . كانت بريطانيا أكثر الأمم اكتفاءً بنفسها — في هذا الميدان على الأقل — أما الآن فقد أصبح موقعها يحتم عليها أن

ولا يحول بينها وبينه حائل . وكان في مقدورها أن تحتط لنفسها هذه الخطة لأنها لا تحشى المنافسة ، ولأنها وهي المضطرة إلى أن تبسح بضائمتها في كل جزء من أجزاء العالم تعلم حق العلم أنها إذا لم تقو على منافسة الدول لها في بلادها فلن تقوى على المنافسة في خارجها . وآخر أسباب هذه العظمة ، وإن لم يكن أقلها أهمية ، هو نظام حكومتها الحر الذي أعجبت به ونسجت على منواله أمم العالم أجمع ، لأنه جمع في نظرها بين الحرية والاستقرار وثبتت بالتجربة صلاحيته ، وخضع له جميع رعاياها مخلصين ، لأنه يكفل لهم حماية القانون ولا يقيد حريتهم فوق الحد الواجب ولقد كانت السيادة البريطانية في كل ناحية من هذه النواحي سيادة موقوتة لا يمكن أن تكون لها صفة الدوام ، لأن في العالم أمماً أخرى لا تقل عن بريطانيا في مواهبها الطبيعية أو مواردها المادية ، وكانت ثمة عوامل عدة تعمل على تقويض دعائم هذه السيادة في خلال الجيل السابق للحرب ؛ وكانت الحرب نفسها تنفر بزوال سيادة بريطانيا الضمحة سيادة الزعامة والنفوذ واحلال سيادة ألمانيا سيادة النظام والقوة محلها . هذا الانقلاب على الأقل لم يقع ، ولكن شعباً واحداً لا يستطيع أن يكون له شيء يسمى سيادة في هذا العالم الذي يسير في طريق الحرية ، بل لا يحق لشعب أن يرغب في هذه السيادة ، ولذلك أخذت سيادة بريطانيا القديمة تزول شيئاً فشيئاً بعد الحرب وبسبب الحرب ، وأصبح واجباً عليها أن تكيف نفسها لمركز جديد في العالم ؛ ولا شك أنها تلقى في سبيل هذا التكيف نصيباً . ولنبحث أولاً فيما اعترى أسباب عظمتها من تطورات :

لم يمد مركز بريطانيا البحري بضمن لها ما كانت تتمتع به من سلامة ؛ ذلك بأن التقدم السريع في وسائل النقل الجوي يعرضها لخطر التفوز بشكل مرعب عرفته أثناء الحرب الكبرى ، وتقول بشكل مرعب ، لأن مدينتها الواسعة المكتظة بالسكان يمكن تدميرها بين عشية وضحاها ، ولم تستكشف بعد وسيلة لاتقاء هذا الخطر الا منع الحروب بتاتا . وليس هذا كل ما في الأمر ، فان اعتمادها في بقائها على ما يأتي اليها من الطعام من وراء البحار يعرضها إلى الخراب العاجل المفزع إذا هاجمت سفنها النواصات ، وذلك خطر ليس في الاستطاعة إلتقاؤه إلا بوسائل غاية في البطء

تكون أول داع الى اعتماد الدول بعضها على بعض اذا قدرت ما يعرضها اليه موقعها من الأخطار

أما الأمبراطورية فاذا نظرنا الى أجزائها الرئيسية رأينا أنها لم تبق « أمبراطورية » مهما توسعنا في فهم هذا اللفظ ، ولم يبق لبريطانيا « إشراف » عليها ، بل أصبحت شركة مفككة الأجزاء من دول حرة تسمى كل منها إلى « الاكتفاء بنفسها » عن طريق الحواجز الجمركية ، ولم تبق أسواقها مفتحة الأبواب للبضائع البريطانية . وينطبق هذا الوصف على بلاد الهند التي كانت أعظم الأسواق لتصريف المنسوجات القطنية ، وهي أم الصادرات البريطانية ؛ وكان تصميم الهند على الاستغناء عن هذه البضائع قدر استطاعتها من أكبر الأسباب التي أدت إلى كساد هذه الصناعة بعد الحرب . وكان ما اعترى الأمبراطورية البريطانية بعد الحرب من تطور وعدم وجود سياسة عامة منسجمة تحمل محل ما كان لبريطانيا من إشراف قد نقص الآن إلى الحد الأدنى . كان ذلك كله من أهم المظاهر التي بدت على هذه الدولة بعد الحرب ولأهميتها استفرد لها بحثاً خاصاً فيما بعد

كذلك لم يبق لبريطانيا ما كانت تتمتع به من التفوق في وسائل الانتاج الصناعي بل أصبح يشاركها في هذا التفوق على الأقل عدد من الأمم الأخرى ، وسبقها الولايات المتحدة وألمانيا في تطبيق العلم على الصناعة تطبيقاً حديثاً . وسبب ذلك أن رجال الأعمال فيها لا يزالون يهتمون بالبحث العلمي ، وأن بريطانيا تأخرت عن غيرها من الأمم في استخدام النظم الحديثة للانتاج الكبير وفي تنظيم الصناعة تنظيمياً يري الى الوصول الى أبعد حدود الانتصاد والائتقان مجتمعين . وهي تقاسي الآن من جراء تأخرها هذا أوخم المواقب كما تقاسي عناد كثيرين من أصحاب الأعمال فيها وتمسكهم بالقديم الرث وتشدُّدُهم في الاحتفاظ بكل ما كان صالحاً أيام آبائهم ، وتقاسي أيضاً طاقبة عناد نقابات عمالها الكاملة النظام والتي تخلق الصعاب إذا ما أريد تغيير الوسائل الصناعية وخشيت أن يعيب المال من جراء ذلك التثيير عطل مؤقت ، وتمسك أشد التمسك بالقيود والاجراءات التي كانت تسير عليها في سني الرخاء السابقة للعرب . كذلك لم يبق لبريطانيا ما كان لها من تفوق في امتلاك مصادر القوى

الصناعية لأن نغمها الآن يوجد على عمق أكبر من عمق الفحم الجديد الذي يستخرج من الولايات المتحدة وغيرها من البلاد ، وقد أبطأت في استخدام أنجع وسائل الانتاج الكبير في صناعة الفحم وفي اتباع الطرق الآلية لتقليل نفقات الانتاج . وزيادة على ذلك فان مصادر أخرى للقوة لا تملكها بريطانيا أخذت تحمل محل الفحم في كثير من الصناعات ، فبها القوى المائية التي لا تستطيع بريطانيا أن تنافس فيها البلاد ذات المجارى الكثيرة المتدفقة من رؤوس الجبال ، ومنها النفط الذي لا تكاد تنتج أرضها منه شيئاً والذي لا بد لها أن تستورده وتنفق على استيراده أموالاً طائلة في كل عام

ويلوح أيضاً أن ما كان يتصف به أهلها من نشاط وقوة مناصرة بدأ يضمحل وان كان هذا مما لا يستطاع اثباته بالاحصاءات . وسبب هذا الاضمحلال أن بريطانيا خاضت غمار الحرب معتمدة على نظام التطوع الاختياري ؛ ومعنى ذلك أن خير أبنائها وأشدهم حماسة ذهبوا الى ميدان القتال أولاً وهلكوا زرافات . وقد يكون هذا هو السبب فيما نشاهد بعد الحرب من نقص مخيف في رجالها المبرزين الذين يتقدمون طائمين لتحمل الثبمات ومواجهة الصعاب وهو أمر مشاهد في كل ناحية من نواحي الحياة : في السياسة وفي الأعمال الصناعية والتجارية وفي الفنون ، فكلها لم يظهر فيها بعد الحرب رجال أوتوا حظاً عظيماً من الشهرة ، ولا يزال الأفتاذ النابهون من الإنجليز ، رجال ما قبل الحرب . كذلك نرى في طوائف كثيرة من الشعوب البريطانية ميلاً متزايداً للاتكال على الحكومة في اصلاح عيوبها ؛ وقد يكون منشأ هذا الميل لدى عامة الشعب ما وضعت الحكومة في السنين الأخيرة من نظم محكمة لتخفيف الضنك أو ما سلكته من الطرق في تنظيم هذه النظم ؛ لكننا نشاهد هذه العادة نفسها : عادة الاتكال على الحكومة بين مديري الصناعة الذين يتطلعون الى الحكومة لتصميم شر المناقصة الأجنبية مع أن آباءهم كانوا يرون واجباً عليهم أن يقفوا أمام منافسهم وجهاً لوجه لا يميزون منهم في شيء (شأنهم في ذلك شأن مسائر أفراد الأمة) فاذا لم يقووا على المناقصة سقطوا صرعى في الميدان . ويلاحظ البعض أن أخلاق البريطانيين بعد الحرب طرأ عليها تغير خطير ، فقد أخذ يسرى في قلوبهم روح الجود والاستسلام والرغبة في الفرار من الصعاب والتخلص